كتاب الشعر

تكمن أهمية هذا الكتاب الذي ألفه الأستاذ لوكاس وهو زميل بكنكز كوليدج، جامعة كامبردج(١) في أنه يحاول أن يلقي أضواء جديدة على كتاب الشعر لأرسطو في علاقته بما كتب من تراجيديا على مر العصور الأدبية. ولقد ظل هذا الكتاب حتى يومنا هذا دستور كتاب الدراما ونقادها، بل واعتبره البعض سيفًا مصلتا على رقاب الكتاب المسرحيين، تنهال عليهم الاتهامات وأحيانًا الشتائم إذا هم حادوا عن تعاليمه قيد أنملة، وتنهال عليهم البركات إذا هم التزموا ما جاء به من قواعد.

وكتابنا يبدأ بداية جميع الدراسات العلمية بالتعريف بمادة البحث، وهي هنا التراجيديا، ثم توضيح هدف الباحث وهو مناقشة ما يثيره كتاب الشعر، لأرسطو من أسئلة في علاقتها بفن التراجيديا على مر العصور. ويبدأ الكاتب بأن يفرق بين معنى كلمتي "الشعر والتراجيديا" عند أرسطو، ومعناهما في

العصر الحديث، إذ أن الفرق بين معناهما عند أرسطو ، ومعناهما في العصر الحديث، قد سبب كثيرًا من البلبلة والمناقشات الطويلة التي لا طائل من ورائها.

كلمة poietes باللغة اليونانية القديمة تعني :

١ – صانع أي شيء .

٢ – شخص "يصنع" أشعارًا في أي موضوع.

٣ – شخص "يصنع" أدبًا خلاقًا بالشعر.

وأرسطو يكره المعنى(٢) ويفضل المعنى(٣)

أما باللغة الإنجليزية الحديثة فإن كلمة poet تعني :

١ – شخص يصنع الشعر .

٢ – شخص يصنع أشعارًا جميلة تثير المشاعر.

٣ – شخص يثير خيالنا، حتى ولو كان يكتب بالنثر، كما يفعل الشاعر المجيد.

كما يمكن أن تستخدم كلمة الشعر استخدامًا استعاريًا فنصف بها أشياء ليست من الأدب في شيء، ولكنها تثير مشاعرنا كما يفعل الشعر، ومثال ذلك أننا نتحدث عما في ضوء القمر من

obeikandl.com

"شعر" أو شاعرية. وهنا نجد أننا أمام معان متعددة لهذه الكلمة فأي من هذه المعاني صحيح؟ يقول المؤلف إن "كل" هذه المعاني صحيحة، إذ أن النقاش الذي ظل يدور على مر العصور عما إذا كان " الشعر" لا بد أن يكتب نظمًا أم لا، إنما هو نقاش لا طائل من وراءه، ومضيعة للوقت والجهد.

وكتاب الشعر في واقع الأمر يعالج الدراما الجادة ولا يعالج الملحمة إلا من قبيل تأدية الواجب، ولا يوجد ما يدلنا على أن أرسطو قد حاول أن يعالج الشعر الغنائي أو شعر الرثاء.

ويأتي هذا بعد تعريف كلمة "تراجيديا" . يقول تعريف أرسطو: إن التراجيديا هي: "محاكاة لحدث جاد، وكامل في ذاته، وله طول معين، يعبر عنه بواسطة اللغة التي يتم تجميلها بطرق مختلفة في أجزاء مختلفة من المسرحية(١)، وهي هذه العواطف" وبهذا يكون أرسطو قد نص بطريقة منطقية على ماهية التراجيديا وما تحاكيه أولاً، ثم الشكل الذي تستخدمه، ثم الطريقة التي تكتب بها، ثم أخيرًا الوظيفة التي تؤديها. ويجب أن نقرر بادئ ذي بدء. أنه لم يكن من المحتوم عند الإغريق القدماء أن تنتهي التراجيديا بفاجعة. بل هم يعتبرون أن جوهر التراجيديا هو في أنها تعالج أحداثا جادة لشخصيات

جادة، بينما تعالج الكوميديا أحداثا هزيلة لشخصيات هزيلة. أما في العصور الوسطى فقد تغير معنى كلمة "تراجيديا" ففقدت علاقتها بخشبة المسرح، وأصبحت النهاية المحزنة ضرورية بل وجوهرية فيها، وفي عصر النهضة استعادت الكلمة علاقتها بالمسرح، ولكن بقى ارتباطها بالنهاية المحزنة.

وهكذا أصبح للتراجيديا ثلاث معان :

١ – في العصور القديمة – الدراما الجادة.

٢ – في العصور الوسطى – قصة ذات نهاية محزنة.

٣ – في عصر النهضة – بقى ارتباطها بالنهاية المحزنة .

وما يهمنا هنا هو أن نؤكد أن أرسطو لا يناقش في كتابه ما نسميه "تراجيديا" إنما ما نسميه "الدراما الجادة".

يقول لوكاس : "ظل تعريف أرسطو للتراجيديا نهبًا لتصارع علماء الجمال في كل العصور حتى كادت دراستهم أن تطمس في زحمتها التعريف الأصلي نفسه".

يقول تعريف أرسطو: إن التراجيديا "محاكاة للحدث" فإلى أي مدى، وبأي معنى يجب على الفن أن يحاكي الحياة؟ ربما يجب أن نرجع إلى الكلمة اليونانية القديمة التي استخدمها أرسطو

mimesis رغم غموض هذه الكلمة أيضًا. فهي تتضمن محاكاة الأشياء في واقعية فوتوغرافية من ناحية، وإثارة حالات شعورية بوسائل أبعد ما تكون عن الواقعية حتى أن أرسطو يسمي الموسيقى "أكثر الفنون قدرة على المحاكاة"، من ناحية أخرى.

وهي أيضًا تتضمن المحاكاة التي تصور الجوانب المثالية، والمحاكاة التي تصور الجوانب الوضعية، فهي كلمة صعبة. ولكن المعنى الجوهري لهذه الكلمة هو محاكاة الأشياء في الحياة الواقعية- أي إعادة خلق الواقع ولكن :

(أ) يستطيع المرء أن يعيد خلق الانطباعات الحسية في الحياة الواقعية، وقد تكون وسيلتنا إلى ذلك هي مطابقة الواقع مطابقة حرفية كما في التماثيل، أو لوحات التصوير، وقد تكون وسيلتنا مختلفة في الواقع كل الاختلاف كأن نرسم صورًا باللغة كما يحدث أحيانًا في الشعر. وهناك بطبيعة الحال درجات كثيرة من الواقعية في محاكاة الانطباعات الحسية، فالتمثال البرونزي قد يعيد خلق الشكل بدقة كبيرة، ولكنه لا يعيد خلق اللون، كذلك لوحة التصوير قد تعيد خلق اللون بدقة كبيرة ولكنها تبقى بعد ذلك ذات بعدين فقط، وهكذا.

(ب) من الممكن ألا تحمل كلمة mimesis فقط معنى إعادة خلق الانطباعات الحسية، وإنما أيضًا إعادة خلق "العواطف" الموجودة في الحياة الواقعية، كما يحدث في الموسيقى. إن كلمة mimesis بتعدد معانيها وما تنطوي عليها من ظلال أوقعت الباحثين في البلبلة، وربما أوقعت أرسطو نفسه في التناقض. ولكننا بالرغم من ذلك نستطيع أن ننتهي إلى بعض النتائج، فما دامت المحاكاة في فن الدراما، التي تعيد خلق عواطف الواقع أكثر أهمية من المحاكاة التي تعيد خلق الانطباعات الحسية في الواقع- فإن الأولى هي الهدف الرئيسي وأما الثانية فليست إلا وسيلة للوصول إليها.

ونعود إلى الأجزاء الباقية من تعريف أرسطو. يقول أرسطو: إن التراجيديا "محاكاة للحدث" فما الذي يكون الحدث بالضبط؟ لقد عمد بعض المحدثين إلى تعريف الكلمة في شيء من الدقة فمثلاً يرى برونتير الناقد الفرنسي أن جوهر الحدث هو الصراع، ويرى آرثر أن جوهر الحدث هو "الأزمة". كذلك يثور البعض على أهمية "الحدث" فيؤلف مترلنك ما يسمى "بالدراما الساكنة" ويكتب برنارد شو مسرحية المناقشة،

وينقل تشيكوف الحدث من خارج الشخصيات إلى داخل نفوسها حتى لتكاد الحدود الفاصلة بين الحدث **والعاطفة** أن تنمحي.

ثم ننتقل إلى الجزء الثاني من تعريف أرسطو: "حدث جاد" والكلمة التي أوردها أرسطو بمعنى جاد تعني حدثا ذا أهمية، وهنا تثار مناقشة قديمة ما الشيء الجاد الذي يتفق وجلال التراجيديا؟ يقول لوكاس إن **طريقة** تناول الكاتب لوضعه هي التي تحدد جدية هذا الموضوع من عدمها.

وبعد ذلك يقول أرسطو إن التراجيديا هي "محاكاة لحدث كامل في ذاته" فما الذي يحدد الاكتمال؟ وهنا يظهر الخلاف بين الرومانتيكية والكلاسيكية، ثم هناك الرأي الحديث الذي يرفض "الاكتمال" رفضًا تامًا، ويفضل عليه أخذ "شريحة من الحياة".

وبعد ذلك يقول أرسطو في تعريفه : "يعبر عنه بواسطة اللغة التي يتم تجميلها بطرق مختلفة" وقد تغير هذا المفهوم تمامًا في عصرنا عندما أصبحنا نكتب الدراما بالنثر، ولا شك كثيرًا في قدرة أسلوب القدماء المنمق على محاكاة عالم يتحدث جميع من فيه دون تنميق على **الإطلاق**.

يقول أرسطو بعد ذلك : "تمثل ولا تحكي"، وهذا أيضًا جزء من الحقيقة وليس الحقيقة كاملة، حتى بالنسبة للتراجيديا الإغريقية، فكثير من الأحداث المسرحية لا يمكن تمثيلها على خشبة المسرح مثل أحداث القتل وسائر الأحداث العنيفة، تلك التي اعتاد المسرحيون أن يستخدموا رسولاً في نقل أخبارها.

ثم نأتي في نهاية الأمر إلى أشهر عبارة وردت في تعريف أرسطو للتراجيديا، وهي العبارة التي تتحدث عن وظيفة التراجيديا في "تطهير" **العواطف**. وقد أفرد المؤلف فصلاً طويلاً لمناقشة هذه العبارة تحت عنوان "**الأثر العاطفي** للتراجيديا"، إذ يعتقد أن هذه العبارة قد تعرضت لسوء الاستعمال من جانب نقاد الصحافة، كما تعرضت لسوء الفهم من جانب أغلبية النقاد.

ما الوظيفة الحقيقية للتراجيديا ؟

قال أرسطو إن التراجيديا "بإثارتها لعواطف الخوف والشفقة تطهر هذه **العواطف**". وهنا تنشأ ثلاث مشكلات مهمة:

١ - ماذا كان رأي أرسطو بالفعل ؟

٢ – إلى أي مدى يعتبر هذا الرأي صحيحا ؟

٣ – ما الذي دفع أرسطو إلى اعتناق هذا الرأي؟

أما بالنسبة للمشكلة الأولى فقد دار نقاش طويل على مر العصور الأدبية حول المعنى الذي قصد إليه أرسطو، فعلى سبيل المثال، نجد أن كثيرًا من النقاد والدارسين قد ترجموا كلمة catharsis بمعنى "تنقية أو تهذيب" أو ما شابه ذلك من معان. وقد أشار البعض إلى أن عاطفتي الخوف والشفقة لدينا "تنقيان" في المسرح عندما تتسبب مشاهدتنا للمسرحية في ارتقائنا بعواطفنا الذاتية الأنانية إلى مستوى موضعي. كل هذا لا غبار عليه، ولكن يبدو أن أرسطو نفسه لم يقصد إليه. هناك دلائل قوية على أن كلمة catharsis أو تطهير لا تعني تنقية وإنما تطهير بالمعنى الطبي (كان والد أرسطو طبيبًا) إلا أنه تبعًا للتغيرات التي تطرأ كل يوم على الفكر الطبي، فإن هذا المعنى قد أصبح مضللاً للعقل الحديث. ونظرية ذلك تعود إلى مدرسة "أبو قراط" التي تقول بأن تحقيق التوازن المطلوب في هذه العواطف لا يأتي إلا بالصحة الجسمية والعقلية على السواء. لذلك نجد أن "ثيوفراستوس" theophrastus تلميذ أرسطو يضمن كلمة catharsis معنى تهذيب الأشجار- أي إزالة الشوائب

الزائدة- وبالاختصار فإن تطهير عاطفتي الرحمة والشفقة لا يعني تهذيب هاتين العاطفتين أو الارتقاء بهما كما لا يعني تخليص المشاهدين وإنما يعني ببساطة التقليل منهما حتى يتحقق لهما الاعتدال والتوازن السليم. ويوضح أرسطو نفسه هذا المعنى العام في كتابه "السياسة" إذ يقول في سياق حديثه عن قيمة الموسيقى:

"إن العواطف التي تؤثر تأثيرًا عنيفًا في بعض الأمزجة لها أيضًا بعض التأثير في جميع الناس.. والفرق هنا يكمن في درجة عمق هذه العواطف مثل عواطف الخوف والشفقة والعاطفة الدينية المشبوبة. فبعض الناس قد تتملكهم هذه العاطفة إذا هم سمعوا موسيقى الأرغن المقدسة، كما لو كانوا قد عولجوا علاجًا طبيًا وتحقق لديهم التطهير، وبالمثل فإن هؤلاء الذين تتملكهم عاطفتا الشفقة والخوف أو أية عواطف أخرى- يستطيعون إذا كانوا تحت سيطرة هذه الحالات العاطفية أن يحققوا لأنفسهم نوعًا من التطهير ويجدون في ذلك تخفيفًا سارًا".

ويقول "أرستوكسينوس" (المولود بعد أرسطو بعشرة أو عشرين عامًا) إن استخدام الموسيقى لهذا الغرض يعود إلى

الفيثاجورثيين Phythagoreans الذين يقال عنهم إنهم "يمارسون تطهير الجسم بواسطة الدواء، وتطهير الروح بواسطة الموسيقى".

وقد يسأل القارئ الذكي: ماذا يعني أرسطو بالضبط بالخوف والشفقة؟ خوف من ماذا ؟ وشفقة لمن؟ هل لدى البشر فائض من الشفقة؟ أو يستطيعون أن يكون لديهم هذا الفائض؟ وإذا تحرينا الدقة لوجدنا أن الشفقة ليست من نوع واحد بل هي أنواع كثيرة. هناك مثلاً الشفقة التي تدفع صاحبها إلى فعل الخير، وهناك الشفقة التي يحسها صاحبها ولكنها لا تدفعه للعمل، وهناك شفقة المرء لنفسه. ثم يأتي الخوف: أهو خوف من الأمور المرعبة التي تجري على خشبة مثل شبح هاملت مثلا؟ أم هو خوف على مصير الشخصيات؟ أم هو خوف عام من قسوة الحياة في كل مكان وفظاعة المصير الإنساني؟ ويقول لوكاس إنه يشك كثيرًا في أن يكون أرسطو قد قصد إلى النوع الأول من الخوف وإنما ذكر النوع الثاني- وهو الخوف على مصير الشخصيات- بنوع خاص بل وأكده. وبحدوث هذا النوع من الخوف يستطيع النظارة أن يواجهوا النوع الثالث بعد خروجهم من المسرح في شجاعة !

وكثيرًا ما يفترض الدارسون بشكل يدعو إلى التضليل أن أرسطو قد قصد إلى عاطفتي الخوف والرحمة وهما العاطفتان الوحيدتان اللتان يمكن أن تجدا الراحة في الدراما الجادة. وهم يتناسون إن أرسطو قال في تعريفه "عواطف من هذا النوع". من أي نوع؟ يقول المؤلف: "أعتقد أن لدى جمهور التراجيديا عواطف أو مشاعر أخرى مثل العطف والاشمئزاز والفرح والاحتقار والإعجاب، ويبدو أن أرسطو كان يعتبر أن هذه العواطف أقل أهمية، ولكن كيف يتم تطهير هذه العواطف؟ أبواسطة الشفقة والخوف؟ أعتقد هذا".

ويسوق مثالاً على ذلك بالشخص الذي تمتلئ نفسه حتى قمتها بالشحنات العاطفية المتعددة كما يمتلئ الخزان بالماء حتى ليكاد يفيض. فعند مشاهدة مثل هذا الشخص للتراجيديا تصبح عاطفتا الشفقة والخوف لديه المضختين الرئيستين اللتين تخففان من ضغط العواطف الأخرى.

ولا ينبغي أن نخطئ فهم تعريف أرسطو فنحسب أنه يظن أنه التطهير، فقد قال أرسطو نفسه في حديثه عن الموسيقى لا يتحتم أن نفهم أن الأثر الأخلاقي للدراما مقصور على التطهير، فقد قال أرسطو نفسه في حديثه عن الموسيقى أن منها ما هو

نافع لأغراض التربية، ومنها ما هو نافع لأغراض التطهير ومنها ما هو لأغراض التسلية.

وقد يتبادر إلى أذهاننا سؤال على جانب كبير من الأهمية. إذا كانت الوظيفة الفعلية للتراجيديا هي تطهير نفوسنا من العواطف الزائدة، فهل نحن في حقيقة الأمر نعاني من تضخم في بعض عواطفنا؟ وإذا كان الأمر كذلك فما الذي دعا أرسطو لأن يتبنى هذه النظرية؟ إننا لا نستطيع أن نفهم موقف أرسطو إلا إذا فهمنا نظرة الإغريق إلى الحياة، ونظرة أفلاطون لها، ذلك أن أرسطو كان ابنا مخلصًا للأمة الإغريقية والفكر الإغريقي من جانب، وأن كتاب الشعر ليس إلا ردود أرسطو على أستاذه أفلاطون من جانب آخر.

منذ أن كان الإنسان يفكر ويحس نشأ لديه الصراع الخالد بين الجسد والروح، ماذا يفعل بعواطفه؟ "أيخضعها بالانصراف عنها" كما قال الرواقيون وبوذا والمسيح؟ أم "يتحكم فيها بالاعتدال في ممارستها" كما نادى بذلك الإغريق وأرسطو؟ إن الاعتدال والتوازن هما الصفة الأولى لعالم الإغريق ولفكر أرسطو الابن المخلص لهذا العالم. ولقد ولد أفلاطون في هذا العالم الإغريقي وهو ينتمي إليه نصف انتماء، فوجد في نفسه

جوعًا شديدًا إلى الفضيلة التي ترفض إقامة القوانين الصارمة الجامدة مما لا يبدو أنه من طبيعة الإغريق. وظل هذا الجوع إلى الفضيلة ينمو في نفس أفلاطون كلما تقدم في السن حتى أصبح مثالاً رائعًا للتناقض الذاتي، فهو فنان أصيل يرفض الفن بوصفه نشاطًا شريرًا. وهو يطرد الشعراء من جمهوريته دون رحمة لأنهم بعيدون عن الحقيقة بدرجتين من جانب، ولأنهم يكتبون أكاذيب تفشل في تعليم الناس أن العالم مكان العدالة المطلقة، بل وتشجعهم على الإسراف في عواطفهم، من الجانب الآخر. لا بد إذن أن نأخذ في اعتبارنا أن أرسطو في كتابه " الشعر" يدافع عن الفن ضد اتهامات أستاذه أفلاطون ويفند هذه الاتهامات حتى ولو لم يذكر اسم هذا الأستاذ مرة واحدة في جميع أجزاء الكتاب.

قال أفلاطون في محاورته الشهيرة "إيون" أن الشاعر يحلق في نشوة الإلهام وهو مسلوب الإرادة فاقد الوعي، ولهذا فإنه من غير المعقول أن نثق بأحكام مثل هذا الرجل- الثمل بخمر الإلهام الإلهي، ولا ينبغي أن نثق إلا بالفيلسوف وحده. كما أن الفن كما قال أفلاطون في "الجمهورية" هو ظل الظل بعيد عن الحقيقة

بدرجتين، ويجيب أرسطو بأن الفن به من الفلسفة والجدية أكثر مما بالتاريط.

وقال أفلاطون: إن الشعر يحيل الرجال إلى جبناء بأن يصور لهم حياة المستقبل فيخيفهم منها. ويجيب أرسطو أن لا، بل يطهر الشعر عواطف الخوف عند البشر. وقال أفلاطون إن الشعر يشجع الناس على الإسراف في عواطفهم، ويجيب أرسطو أن لا، بل هو يقلل من العاطفية إلى الحد المعتدل.

وإذا كان كثير من تعاليم أرسطو في كتابه "الشعر" لم يعد ينطبق على التراجيديا في العصور التي تلت عصره، وإذا كان الكثيرون من الكتاب المسرحيين قد نجحوا في تحدي هذه القواعد وأنشأوا التراجيديا الجيدة، فإن تاريط قوانين أرسطو بالرغم من ذلك، هو تاريط التراجيديا في كل العصور وفي كل مكان.